

الفصل السابع

الهوية بين
ضرورات الذات
وتطورات العصر

مقدمات في قراءة التراث

نحو وعي تاريخي للتراث:

لا يمكن لأمة أو ثقافة أن تنفصل عن ماضيها وتاريخها، لأن التاريخ، والتراث يشكلان بالنسبة لجميع الثقافات، المخزون الرمزي والعائدي والنظام الفكري. لهذا لا يمكن أن نتصور وجود ثقافة بلا تاريخ.

فلا يوجد على مستوى التاريخ قطيعة، لأننا نحمل مسؤولية الماضي، لأن الماضي موصول بالحاضر، والاثنان معاً، لهما صلة بالمستقبل فلا فصل في التاريخ، هناك وصل استمراري لحركة التاريخ.. أي ثمة حتمية وجبرية يفرضها الوجود، جبرية السنن والقوانين، جبرية النتيجة المتصلة بالمقدمات، والنهايات الموصولة بالبدايات على حد تعبير الكاتب المغربي (إدريس هاني).

فلا يمكن إذاً، أن نتقابل بين الحاضر والماضي، ونجعل تحقيق أحدهما على حساب الآخر، يشير إلى هذه المسألة الكاتب المصري (زكي نجيب محمود) عندما يتحدث عن الماضي بأنه ليس جثة ميتة موضوعة في تابوت، وعلينا نحن أبناء الحاضر أن نحافظ على هذا التابوت في المتحف. بل هو أقرب إلى الرافعة، التي نرّحزح بها الأثقال الراسخة، لتحرك، ولهذا فنحن إذ نصنع ماضيّنا، من بين المادة الخامة القريرة التي خلفها لنا الآباء فإننا لا نحسن هذا الصنع، إلا إذا اخترنا الروافع التي تثبت الحياة في الحاضر، وفي

الإعداد للمستقبل على حد سواء. وإلا انقلب تاريخ الماضي بين أيدينا صخوراً جوامد، تعرقل التيار دون الانسياب الدافع إلى الهدف.

فعدم تحديد بوصلة نظرية واضحة وسليمة في علاقة الحاضر بالماضي يجعل الإنسان (الفرد والمجتمع)، يعيش الازدواجية في كل نواحي وحقول حياته لأن التراث يعدّ ذاكرة الأمة، فكلما كانت هذه الذاكرة حافظة، وقادة على الاستفادة من تجارب الماضي، وتوظيف ذاكرة الأمم لخدمة الراهن والمستقبل. دون التوهم لحظة واحدة أننا نقف عند التراث فقط لأن التاريخ حركة سائرة دوماً إلى الأمام، والأحداث وإن بدت متشابهة في بعض ظواهرها وعناصرها، إلا أن شروطاً جديدة ومختلفة تتولد باستمرار وبالتالي فإن الظواهر الجديدة تملئ معالجات جديدة.. فالتراث ليس إجابة جاهزة عن أسئلة الراهن، إنه مجرد وعاء وذاكرة، وبمقدار استيعاب مضمون هذا الوعاء وجوهره، تتوافر القدرة الكافية لمواجهة أعباء الحاضر والمستقبل.. وبهذا لا يصبح التراث كما يزعم البعض معيقاً أو كابحاً عن التقدم والتطور..

من هنا فإن التراث هو تلك الحصيلة من المعارف والعلوم والعادات والفنون والآداب والمنجزات المادية التي تراكمت عبر التاريخ.. وهو نتاج جهد إنساني متواصل، قامت به جموع الأمة عبر التاريخ، وعبر التعاقب الزمني أصبحت هذه الحصيلة المسماة (التراث)، تشكل مظاهر مادية ونفسية ونمطاً في السلوك والعلاقات، وطريقة التعامل والنظر إلى الأشياء.

لهذا فإننا نرجع إلى تراثنا، قصد التزود وحفز الهمم، والإبقاء على الأمل، والتماس القدوة والأنموذج.. لهذا فإن تكرار التراث والانشغال السلبي به عن طريق الوقوف عنده. إن وضعاً كهذا على المستوى الحضاري، لا يمكن أن ينتج فكراً أو ثقافة قادرة على تأسيس القاعدة النظرية الضرورية للرفقي والتطور على المستوى العام.. وبهذا يفقد

المجتمع العربي والإسلامي في الصلة الضرورية التي تربطه بترائه وماضيه، من أجل استفزاز جانب الإبداع والابتكار في المجتمع. لأن التاريخ كما يقول (كروتشه) هو بأجمعه تاريخ معاصر. أي أن التاريخ يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضي، من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله.. والعمل الأساسي للمؤرخ ليس فقط التدوين، إنما وبالدرجة الأولى التقويم..

لهذا فإننا نحافظ على هويتنا الثقافية والاجتماعية، ليس عن طريق الانطواء والهروب إلى الماضي وذكرياته. كما أنه ليس عن طريق الاستلاب والتبعية.. إن طريق الحفاظ على هوية المجتمع وتراثه، لا يتحقق إلا بإعادة تنظيم الحياة العقلية والمادية والأخلاقية للمجتمع على ضوء ثوابت الحضارة والتاريخ.

إن الهوية تعبر عن ذاتها، في الكفاح المستميت في تطوير التراث، لا في الانجbas فيه. وفي تحرر الذات من رواسب الماضي السيئ، وأوهام المستقبل المجهول والغامض.. إن الهوية تتجسد في إطلاق إمكانات الذات في البناء والتطور..

وهذا هو الرأسمال الأول الذي ينبغي استخدامه لتنمية راهننا وصولاً إلى بناء مستقبلنا المنشود.. وبهذا يتحول التراث إلى مصدر حيوي، لمدارس ثقافية - اجتماعية - تجديدية، تسعى لبناء حاضر هذا المجتمع وفق ثوابته التاريخية والحضارية.. وباستمرار تلح ضرورة قراءة التراث، والتعلق بالخصوصيات الحضارية إبان خضوع المجتمع لعمليات تغيير ثقافي أو اجتماعي سريعة، ولا تنسجم والخصوصيات الذاتية. بدون فرق سواء جاءت عمليات التغير السريعة من الداخل أو الخارج..

كما أن أي محاولة لقطع حاضر الأمة الثقافي والحضاري، عن ماضيها وموروثها الثقافي، لا يؤدي إلا إلى المزيد من ظهور الكيانات الاجتماعية المشبوهة، والتي لا تقدر على عمل أي شيء يذكر على المستوى الحضاري. والعالم العربي والإسلامي ليس وحيداً على

الصعيد الدولي حين يهتم بقراءة تراثه والعمل على إحيائه. إذ تجد جميع الأمم والشعوب تهتم بهذه المسألة وتوليها أهمية قصوى. والمثال البارز في هذا الصدد هو نقل ملحمة (بيودلف) الشهيرة من اللغة الإنجليزية القديمة إلى الإنجليزية الحديثة لتيسير قراءتها للأجيال المعاصرة.. لم تهمل الأساطير اليونانية القديمة رغم أنها خرافات، تتعارض ونظريات العلم الحديث. وإنما خضعت لتفسيرات التحليل والتأويلات الأنثريولوجية. وعلاقتنا بالتراث ليست علاقة ترفيه أو كمالية، وإنما ترتقي على مستوى الدين والحضارة. بمعنى أن علاقتنا بالتراث تنبع من أن في هذا التراث الأنموذج التطبيقي لديننا ومبادئنا أو ما يطلق عليه بـ (الإسلام التاريخي).. كما أن إنجازات الأمة الحضارية ومكاسبها الإنسانية تبلورت وتحققت فعلاً في تلك الحقبة التاريخية من الزمن التي نطلق عليها حالياً جزءاً من التراث.. وعلى هذا فإن إخراج الإسلام وحضارته من التراث، يحول التراث إلى لا شيء.

قراءة التراث.. لماذا؟

ثمة مسوغات عدة لضرورة قراءة التراث من جديد أهمها:

١- تجديد الرؤية: إن قراءة التراث - كما قلنا آنفاً -، ليس حالة ترفيه تعيشها الشعوب والأمم، وإنما هي حالة ضرورية لبناء الحاضر. إذ أن القراءة الواعية للموروث الثقافي والحضاري، تؤسس العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية لتجديد رؤيتنا إلى موروثنا الثقافي. وكيفية الاستفادة منه في حاضرننا.. لهذا فإننا لا نطلب الماضي لذاته وإنما من أجل تحديد الرؤية، إلى الأصول والمنطلقات والقيم التي صنعت الماضي المجيد، لتوظيفها بما يخدم حاضرننا ومستقبلنا..

٢- تحديات الواقع المعاصر: بفعل عمليات التحديث القسرية والسريعة التي أصابت العالم العربي والإسلامي، بدأ الواقع المعاش، يتشكل وفق منظومات وقيم جديدة..

وهذا أدى بشكل أو بآخر إلى تفكيك منظومة القيم السابقة، وبطبيعة الحال فإن هذه العملية وتداعياتها شكلت تحدياً صريحاً لشعوب العالم العربي والإسلامي.. فالرجوع إلى التراث وقراءته من جديد، هو في حقيقة الأمر من أجل مقاومة الانسحاق والاستلاب القيمي والاجتماعي، وتحقيق التوازن المطلوب للعالم العربي والإسلامي أمام تحديات الواقع المعاصر.

٣- تحقيق التطلعات: يخطئ من يعتقد أن تحقيق تطلعات العصر الحديث، يمر عبر إلغاء الذات والتراث.. لأنه لا يمكن لأي شعب أو أمة أن تحقق تطلعاتها، وهي فاقدة لذاتها.. فالشرط الأول والضروري لتحقيق التطلعات هو حضور الذات الحضارية، لأنها هي القادرة وحدها على تحريك كل عوامل وعناصر المجتمع الفاعل والمؤثر والشاهد.. فقراءتنا للتراث ليست هروباً من الحاضر ومسؤولياته وتحدياته (كما يزعم البعض)، وإنما هي عملية واعية لتوفير كل شروط الانطلاقة الحضارية المنشودة.

نحو منهجية حية لبناء العلاقة مع التراث:

أما كيف ينبغي أن تكون علاقتنا بالتراث، فنحددها بالنقاط التالية:

١- العلم بالتراث: من الثابت أن المجموعة البشرية، التي تنفصل عن تراثها وماضيها، فإنها تقوم بعملية بتر قسري لشعورها النفسي والثقافي والاجتماعي، وسيفضي هذا البتر إلى الاستلاب والاغتراب الحضاري.. لهذا فإن العلاقة التي ينبغي أن تربطنا بتراثنا، هي علاقة (العلم)، حتى نتمكن من الاستفادة القصوى من المخزون الرمزي والمعرفي والشعوري الذي يوفره التراث للعالم به..

٢- الإضافة إلى التراث: بما أن التراث عبارة عن الجهود الإنسانية المختلفة التي أثرت في مجرى التاريخ والمجتمع. لذلك فإن إيقاف مسيرة الإبداع الإنساني يعد ظلماً لتراثنا المجيد... لهذا فإن العلاقة التي ينبغي أن تربطنا بتراثنا، هي علاقة الإضافة، بمعنى دفع الجهود الإنسانية في مختلف الحقول والجوانب لاستمرار حركة الإبداع في راهنتنا. ويخطئ من يعتقد أن أوروبا الحديثة، تنكرت لتراثها وماضيها، وإنما الشيء الذي قامت به، هو التخلي عن نظرة الكنسية التي كانت تنظر بشكل سلبي، إلى حركة المجتمع وسعيه نحو الانفكاك منها.

وأخيراً: إن أهمية قراءة التراث، تنبع من ضرورة تحديد العلاقة السليمة بين الماضي والحاضر، في مستوى التقدم المادي (علاقة الإنسان بالطبيعة)، وفي قدرة الإنسان على التحكم بأسرار الطبيعة وتسخيرها ارتفاعاً بها وانتفاعاً منها، تطرح قضية العلاقة بين حاضرنا وتراثنا، باعتباره منجزاً إنسانياً، اجتماعياً، حدث في حقبة زمنية على أرضنا التاريخية، وانطلاقاً من ذات القيم التي نعتقد بها نحن. إن عدم تحديد العلاقة السليمة بين الماضي والحاضر، هي التي تنشأ حالة مزدوجة يعيشها إنسان هذا العصر. حيث التقديس المطلق للماضي، والانبهار التام بمنجزات الحضارة الحديثة. وحدها القراءة الواعية للتراث، هي التي تؤهلنا للجمع بين جمال الماضي وقوة الحاضر.

الهوية بين ضرورات الذات وتطورات العصر

دائماً ولدى كل الشعوب والمجتمعات، تشكل الهوية والمنظومة المعرفية الذاتية، بعناصرها العقدية والثقافية، عنصر أساس لتوازن الكيان المجتمعي.. بحيث أن وجود أي خلل في هذه المسألة يعني على المستوى العملي بداية الأفول والتقهقر الحضاري.

فالعالم العربي والإسلامي في العصر الحديث، بدأ بالتفكك والضعف والدخول في نفق السيطرة الأجنبية كنتيجة طبيعية لما حدث للأمة، على مستوى الهوية والمنظومة المعرفية. وبالتالي فإن خيارات النهوض على الصعيدين الثقافي والحضاري وتجاوز المآزق الراهنة، التي تعاني منها الأمة لا تتم إلا على قاعدة انسجام هذه الخيارات مع هوية الأمة ومعادلتها الذاتية، أو منبثقة من مضمون الهوية والذات الحضارية.. ودائماً حسن العلاقة مع الهوية بمكوناتها الأصلية، كفيل بأن يعيد للأمة حيويتها الحضارية، ويقوي من إمكانات قيامها بدورها التاريخي تجاه العالم.. لأن الهوية ليست كياناً ثابتاً جامداً، بل هي متحركة ومتطورة، بحيث نجد هذه الهوية كمفاهيم وقيم وأطر تتمدد في الوسط الاجتماعي، وتلقي بقيمتها وأنماطها وأنساقها على مجمل تفاصيل الحركة الاجتماعية، وهذه الحركة الاجتماعية المعتمدة في علاقتها وحراكها وتدافعها على هذه الهوية الحضارية، تقوم بدورها بعملية معكوسة حيث تغذي الذات الحضارية، وتزيد من شموليتها، وتعمق أبعادها، وتصبغ كل شيء بلونها.

لماذا التأكيد على مسألة الهوية؟

تنبع أهمية التأكيد على مسألة الهوية بعناصرها الثقافية والحضارية والتنمية من

النقاط التالية:

١ - وعي التطور:

التطور العلمي والتكنولوجي الهائل، الذي أسقط الحدود، وأوصل مناطق العالم ببعضها البعض، حتى أضحت (قوية كبيرة)، حسب تعبير «ماك لوهان»، كل هذه التطويرات قد تجرف الإنسان إلى مهاوي سحيقة، أو في أحسن التقادير، تحولها إلى لاهث وراء الجديد في التكنولوجيا وصناعة المعلومات. وهذا ما يفسر لنا عملية الخلط الموجود في الفضاء العربي والإسلامي، بين المفاهيم الأساسية للنهوض والتقدم، وبين تاريخية المفاهيم والقيم النهوضية.

حيث نجد أن الاهتمام بتاريخ المفاهيم، ومعرفة السياق التاريخي والظروف الزمكانية الذي نشأت فيه تلك المفاهيم، يعد عملاً علمياً وذا فائدة عميقة، لإدراك مدى تطور حركة المفاهيم في الإطار المعرفي العربي والإسلامي.. أما إغفال تاريخية المفاهيم، فإنه يوصلنا إلى القبول النهائي بإنجازاتنا التاريخية ونعيش راهناً على أمجادها الماضية (على المستوى النفسي والوجداني)، وعلى إنجازات الآخرين على المستوى العملي والفعلي..

كما أن غياب تاريخية المفاهيم الأساسية للنهوض والتقدم، جعلنا نقوم بعملية ابتسار لقيم التقدم ومفاهيم النهضة والتطور، وانتزاعها انتزاعاً من سياقها المعرفي الغربي بشكل مجرد، متغافلين عن حركة تطورها الطبيعية وسياقها الاجتماعي والحضاري. ولهذا نشأت في الوطن العربي نزعة واضحة في هذا المجال هي العلموية، وأصبحت تشكل جزءاً من العقلية العربية، وبخاصة عند النخبة المتعلمة والمتخصصة.. ومؤدى العلموية أن الوسيلة إلى التقدم الحضاري، في تداول أرقى وأحدث النظريات العلمية في العلوم من كيمياء وفيزياء ورياضيات وبيولوجيا ووراثة وجيولوجيا وإلكترونيات وفضاء، وفي تدارسها وتعليمها ودون التعرض للتغيرات التي نفرضها مثل هذه القفزات والتجديدات العلمية على المفاهيم والفلسفات والأفكار العلمية والاجتماعية والسياسية

السائدة. في النزعة العلمية يؤخذ أحدث العلم بدون تاريخيته، وتتحول بذلك المادة العلمية وكأنها جهاز مستورد أو قطعة تكنولوجية جديدة تتداولها الألسن وقاعات الدرس والامتحانات. وتلتقي النزعة العلمية هنا وتتكامل مع النزعة التكنولوجية. والتي تحاول تطوير المجتمع من خلال تكديس أحدث المعدات والأجهزة التكنولوجية دون التأكيد على الجانب الاجتماعي أو الاقتصادي السياسي لعمليات الإنتاج والتطور التكنولوجي.

لهذا فإن القاعدة الأساسية للتعامل مع هذه التطورات، هي تأسيس حالة من التوازن المجتمعي، حتى يتمكن المجتمع من ملاحقة التطورات دون إضاعة الذات. ولا شك أن تأسيس عملية التوازن المجتمعي لا تتم إلا على قاعدة الهوية وتفعيل عناصرها في الوجود الاجتماعي الشامل.

٢- وعي الذات:

ابتداء نقول: إن إهمال الذات وتجاوز أطرها المعرفية، لا يؤدي إلى فهم الآخر فهماً دقيقاً، بل يؤدي إلى الانبهار به والتلقي الأعمى لكل ما ينتجه ويصدره.. وإن أصحاب هذا المنحى لا يدركون العلاقة الوثيقة التي تربط بين فهم الذات وفهم الآخر، وأن الطريق السوي لإدراك الآخر حضارياً وفهم حركة تطوره وسيرورته التاريخية لا تتأتى إلا بمصالحة الذات وسير أغوارها واكتشاف معدنها الأصلي.

ووعي الذات ليس مسألة هلامية أو فضفاضة وإنما يعني:

المزيد من التعرف والكشف على الثروات المعرفية والثقافية التي تحتجزها الذات الحضارية في تراثها وتاريخها. حضور الذات في عملية المثاقفة مع الثقافات الإنسانية، حتى لا تكون عملية المثاقفة طريقاً إلى هدم الأسس المعرفية التي تنكئ عليها الذات.

وحضور الذات في عملية المثاقفة، يؤدي إلى خلق الاندفاع القوية والضرورية لفهم الثقافات المغايرة، والعمل على هضم الصالح منها.

احترام الثقافات الإنسانية الأخرى، لأن الاحترام في بعده الثقافي يؤسس القاعدة النفسية والفكرية لهضم نقاط القوة المتوفرة في تلك الثقافة. ويخطئ من يعتقد أن عالمية الثقافة، تتحقق عن طريق نفي وإقصاء الثقافات الأخرى، والعمل على طرد مساهمات الثقافات الأخرى في الحركة الحضارية الإنسانية.. والتجربة العلمية لمسألة الاحترام المذكورة، تتجسد في التعاطي الإيجابي مع عطاءات وإنجازات الثقافات الإنسانية الأخرى، والانفتاح على المنتج الثقافي لتلك الثقافات، والتعامل معه على أساس أنه إنجاز إنساني عام. يمكننا الاستفادة منه، لو انسجم وخصائصنا الذاتية الحضارية والتاريخية.

والهوية الذاتية بطبيعة الحال لا تدفعنا أو لا تعني بالنسبة لنا أن نغلق أبوابنا على ما هو ليس في أيدينا، وتتحكم به قوى أخرى خارجة عنا.. وإنما تعني أننا في البدء لا بد أن نحقق هويتنا الحضارية والثقافية، ونجعلها حاضرة في حركتنا الاجتماعية والثقافية، وننتقل من هذا الحضور الثقافي والحضاري للتفاعل مع الثقافات الأخرى.. وبهذا لا تكون ثقافة المجتمع المعاصر أو تصرفاته المختلفة خارج هذا المنظور والفهم للهوية وأبعادها. بل هي منطلقة منه لا لكي تجمده في قوالب ماضوية، وإنما لكي يكون التجمع ملتحمًا التحاماً عضوياً مع منظومته القيمية والحضارية. وهذا الالتحام هو الذي يؤسس العوامل الذاتية والموضوعية، لانطلاقة المجتمع وقدرته على العطاء على المستوى الحضاري.

لهذا كله نرى أن تحديث الهوية والإطار المرجعي المنسجم وتاريخنا للثقافة العربية والإسلامية، هو الخطوة الأولى الضرورية لإخراج المجتمع العربي من حالة الازدواجية

والثنائية التي يعيشها في كل شيء. تراث ليس بمقدور المجتمع استنطاقه بما يتناسب وتطورات العصر، ومكتسبات حضارية وتقنية ليس بمقدور الإنسان الاستغناء عنها. فالهوية الذاتية والإطار المرجعي القائم على النتاج الإنساني المنضبط بضوابط الوحي والملتزم بقوانينه ومحدداته، واستحضار كل هذه الأمور على مستوى إعادة إنتاجها وفق ما تتطلبه الظروف واللحظة التاريخية.. في تقديرنا كلها مسائل أساسية لتكوين الوعي القادر على دفع المجتمع إلى مدارج التقدم والتطور.

● وظيفة الهوية:

فوظيفة الهوية الأساس هي صياغة الكيان المجتمعي بما ينسجم والمنطق العقدي والتاريخي لتلك الجماعة البشرية..

وفي كل الحقب التاريخية التي مر بها الإنسان على وجه هذه البسيطة كان لغياب الهوية أو ضمورها الدور الأساسي والجوهري في دخول الكائن البشري في نفق اللااستقرار النفسي والاجتماعي..

وفي المقابل كان الاستقرار النفسي والاجتماعي كقاعدة لتطوير الإنتاج وتحسين ظروف المعيشة المعنوية والمادية رهين بحسن العلاقة التي تربط تلك المجموعة البشرية بهويتها وعاصرها العقدية والحضارية.

فالتاريخ الحقيقي الذي يتجه إلى صنع المنجز الحضاري لأي مجتمع يبدأ منذ اتساق العلاقة بين الحركة الاجتماعية والهوية، بحيث تكون الحركة الاجتماعية مجسدة لعناصر الهوية الذاتية للمجتمع. وهذا ما يقربنا من المفهوم الاجتماعي للزمن بحيث نجد أن حركة الناس العشوائية أو الغير المنسجمة مع خصائصهم الذاتية والحضارية، تبقى خارج التاريخ وعلى هامشه.. بمعنى أن هذه الحركة لا تعود إلى توظيف كل الطاقات

والقدرات في سبيل بناء الذات الحضارية.. وإنما هي حركة في أحسن الظروف تقليدية، لاهثة وراء منجزات الغير لاقتنائها دون أن تمثل القيم الأصلية التي أوجدتها، وكأن الحضارة سلعة تباع وتشترى.

إن الهوية بعناصرها العقدية والحضارية، بمثابة القدرة الخلاقة المستمرة التي تمد الكيان الاجتماعي بأسباب وعوامل تحقيق التوازن بين الحاجات المعنية والمادية، الروح والجسد، المصلحة الفردية والجماعية، الدولة والمجتمع، وهكذا تكون الهوية هي صانعة التضامن بين أبناء المجتمع، وبها يسعى أبناء المجتمع جميعاً إلى تحصيل الكمالات الإنسانية، والدخول في غمار منافسة الأمم والشعوب على بلوغ سبل العلم والمدينة والحضارة..

وإن أقول نجم الهوية، أو التخلي عنا يورث المجتمع نمطاً من التقليد الأعمى لشعوب العالم وطرائقهم في الحياة. يشير إلى هذه المسألة الشيخ (محمد عبده) (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) في مقال له تحت عنوان (كلام في خطأ العقلاء) يقول فيه: إن إفراطنا في تقليد الأوربيين، ومجاراتهم في عاداتهم التي نظنها تفوق عاداتنا البسيطة، فعل في نفوس غالب الأغنياء منا فعلاً غريباً صرف نظرهم إلى اللذائذ، واستكمال لوازم الترف والنعيم وأحدث في نفوسهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم وهو الوقوف على الطريق المستقيم الموصل إلى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي. فالهوية هي الحافز الرئيسي عند الأمم والشعوب للعمل والبناء، وهي سبيل الوحدة والتعاقد على المستوى الداخلي للمجتمعات والشعوب.

هذا لا يعني أن العنصر الثقافي في الهوية التي ننشدها وطالب بإحيائها في الوسط الاجتماعي ذو نظام مغلق، موغل في العزلة والابتعاد عن حركة الحياة. إن العنصر الثقافي والمبادئ، التي إن تمسكنا بها وعملنا على إحيائها في حركتنا ومسيرتنا، تشبثنا بأسباب التحضر وعوامل التمدن في مختلف الحقول والمجالات. لأن هذه القيم تستنفر كل

طاقات الإنسان وقدراته وإمكاناته لوصل المسيرة التاريخية للأمة، وتجاوز كل عناصر القطيعة مع الأمة تاريخياً وحضارياً.. ولا شك أن عملية الوصول والاتصال بين راهنا وتاريخنا وحضارتنا يشكل الوعاء الحاضن، والحقل المناسب الذي تنو فيه كل عمليات التجديد والإبداع الثقافي.

● الهوية والاختلاف الثقافي:

لا يختلف أحد حول ضرورة الوحدة والتوحيد بين أبناء الأمة الواحدة. لما لهذه الوحدة من فوائد عديدة وآثار حسنة لصالح الأمة حاضراً ومستقبلاً.. ولكن هل طريق الوحدة المطلوبة يمر عبر إقصاء كل حالات التنوع والتعدد الطبيعية والتاريخية المتوفرة في عالمنا العربي والإسلامي. لصالح صيغة وحدوية قائمة على نمط رتيب من التوحد السياسي والثقافي والاجتماعي، ولا ترى من الضروري أو المصلحة العناية بتلك التنوعات الطبيعية والتاريخية في مجتمعنا العربي والإسلامي.

فهل طريق الوحدة يمر عبر القفز على تلك الحالات والحقائق التاريخية، وتجاهلها في استراتيجية العمل الوحدوي.. إن تاريخنا العربي والإسلامي الحديث يؤكد لنا أن بعض المدارس الفكرية والسياسية في محيطنا وفضاتنا المعرفي نظرت إلى تلك الحقائق والأنماط، وفق منظور أن الوحدة تعني التوحد القسري القائم على نفي كل أشكال التعدد والتنوع الطبيعية والتاريخية المتوفرة في مجتمعنا.. لذلك فقد استخدموا كل ترسانتهم النظرية والعملية في سبيل محاربة التنوع والتعدد المتوفرة في المجتمع العربي والإسلامي..

إننا نرى أن الوحدة كأصل شرعي وخيار حضاري، لا يتحقق عبر التوحد القسري، وإقصاء حقائق التعدد في خريطة وجودنا التاريخية والحضارية، فالوحدة لا تعني التطابق التام في وجهات النظر وطرق التفكير بين أبناء المجتمع الواحد. وإنما تعني احترام حقائق

التعدد والتنوع والعمل بشكل مشترك ووحيدوي على ضوء تلك الحقائق. وهكذا يبقى خيارنا هو التنوع. ومن يطلب هوية واحدة بعيدة عن التنوع يطلب أمراً مستحيلاً في الفطرة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

كيف نحافظ على الهوية؟

أمام هذه التطورات العلمية المتسارعة والرهيبية، لا يمكننا بأي شكل من الأشكال أن نتابع هذه التطورات بشكل دقيق فضلاً عن استيعابها وتوظيف منتوجاتها بما يخدم الأمة والمستقبل.

إننا نرى أن الطريق الوحيد والفعال للحفاظ على هوية الأمة تجاه هذه التطورات وقدرة الإنسان الفرد والجماعة السريعة على ذلك لا يتحقق إلا بـ (حضور النهضة) في الكيان المجتمعي برمته.

● وحضور النهضة في المجتمع العربي والإسلامي يعني:

١- حضور الوعي وتكثيف آلياته في حياة الإنسان. حتى تتأسس الشروط الملزمة للانطلاق في رحاب الوعي وآفاقه بعيداً عن أطر التقليد الضيقة أو خيارات التبعية المذلة. ذلك الوعي الذي ينهي كل مفردات التقليد الأعمى من حياة الإنسان، فتصبح ذاته ذاتاً عارفة متحركة باستمرار نحو الآفاق المعرفية المرجوة.. كما أن الوعي وحضور بنوده ومفرداته في حياة الإنسان، هو المهاد الفكري الضروري للانعتاق والتحرر من قيود التقليد وأغلال التبعية والانطلاق في آفاق نوعية إلى الأمام.

٢- الرغبة الحقيقية في تطوير الذات وتوسيع آفاقها المعرفية، والاستفادة من معارف الآخرين وإنجازاتهم. والاعتقاد الجازم من أن الإنسان مهما علا كعبه، فهو لا يمتلك المعرفة المطلقة والحقيقة الخالصة. بل معرفته معرفة نسبية تغتني بالحوار والتفاعل والثقافة.

والبداية في أي حوار تكون في احترام كل طرف لنظيره، وتسليمه الضمني أن ما

لدى الأنا لا يعلو ما لدى الآخر، والعكس صحيح بالقدر نفسه. فالحوار لا يعرف العلاقة بين الأعلى والأدنى، بل العلاقة بين الأكفاء. هؤلاء الذين يعرفون أن العقل هو أعدل الأشياء توزعاً بين الناس كما قيل عن (ديكارت) الفيلسوف، ونتاج الحوار هو ناتج الفعل الجدلي. ذلك لأن فعل الحوار نفسه كفعل الجدل، يؤلف بين عناصره المتقابلة الواقعة بين أطرافه المتعارضة ويصوغ منها ما يستوعب الأطراف كلها ويتجاوزها في آن، صانعاً بذلك بداية أطرافه المتعارضة ويصوغ منها ما يستوعب الأطراف كلها ويتجاوزها في آن، صانعاً بذلك بداية أخرى لحوار آخر لا يكف عن التحول والتولد.. وفي إطار الحوار، لابد من تكوين العلاقات، وتجاوز الإحن النفسية والتاريخية والسياسية، حتى نصل إلى مرحلة سامية من الفهم العميق لمختلف مدارس الاجتهاد الفكري والتعاون البناء.

٣- استحثاث الجهود الداخلية وعوامل النمو الذاتية في الجسد العربي والإسلامي، حتى تتولد حركة دائمة، وسيرورة متجهة نحو التطوير والتحديث، لتجاوز الحال إلى المؤمل، والواقع إلى الطموح. والتجربة الإسلامية التاريخية، تكشف لنا بوضوح أن الأمة أو المجتمع الذي يتمسك بأسباب العمران الاجتماعي والحضاري سيصل إلى غايته، ويصبح مجتمعاً حضارياً تتوافر فيه كل خصائص مجتمع التقدم.

والمجتمع أو الأمة التي تهمل أسباب العمران وتبتعد عن عوامل الرقي، تكون دائماً ودون الأمل كلها، وتحتاج إلى الآخرين في كبريات الأمور وصغائرها. وبالتالي فالعلم العربي والإسلامي اليوم، هو بحاجة إلى التحديث والانخراط الفعلي في عصر العلم والثقافة الحديثة كما هو بحاجة إلى الهوية والذات الحضارية.